

تفريغ المحاضرة السادسة في العقيدة: الأصول الثلاثة

يوم الخميس الموافق 9-8-2018

بشرح فضيلة الشيخ الاستاذ الدكتور/ طلعت زهران- حفظه الله
الدورة النسائية -مصر-الاسكندرية - العصابة - جامع الامام مسلم

تابع الاصل الثانى : معرفة دين الإسلام بالادلة

قال أهل العلم: الشهادة خبر قاطع، مقطوع به، لأنها أعظم شهادة في الوجود على أعظم مشهود به حينئذ لا ينصرف الذهن إلا إلى هذين النوعين، الشهادة لله عز وجل بالوحدانية، والشهادة لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة.

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} شهد بمعنى أَخْبَرَ وَبَيَّنَّ وَأَعْلَمَ وَحَكَمَ وَقَضَى أن ما سواه ليس بإله، يعني نفي الإلهية عما سوى الله عز وجل، فلا يستحق العبادة سواه جل وعلا كما لا تصلح الإلهية لغيره ويلزم من ذلك أمر المخلوقين بأن يتخذوه إلهًا، فلا تصرف العبادة لسواه جل وعلا. وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. ويعبر عن هذا الاعتقاد أمران:
الأول: اللسان.

والثاني: العمل بالجوارح والأركان.

فالله عز وجل هو الشاهد، وقرن شهادته وشهادة الملائكة، وأهل العلم أي أصحاب العلم الشرعي وهذا فيه منقبة عظيم لأهل العلم حيث أخبر أنهم شهداء مع الله عز وجل ومع ملائكته، والمراد بهم أولوا العلم بشريعته، ويدخل فيهم دخول أوليائهم رؤس الكرام {قَائِمًا بِالْقِسْطِ}، {قَائِمًا} {بِالْقِسْطِ} أي بالعدل، والعدل يكون في القول، وفي الفعل، وفي الحكم، فهو عز وجل حكمه عدلٌ، وقوله عدلٌ، وفعله عدلٌ {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} تأكيد لقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} فيه تقرير العبادة بأنه لا يستحقها إلا الله عز وجل {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} اسمان علما على الرب جل وعلا متضمنان بصفتين وهما العزة والحكمة.

ودليل شهادة أن محمدا رسول الله قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}. التوبة آية: 128

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ} وأكده بالقسم وباللام الموطئة للقسم وبقد، هذه ثلاث مؤكدات. {مَنْ أَنْفُسِكُمْ} أي من جنسكم تعرفون نسبه وصدقه ليس بملك فلا تستطيعون مخاطبته والجلوس معه، بل هو بشر يتمكنون من سؤاله متى شاءوا

{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} العنت بمعنى المشقة، يعني يشق عليه ما شق عليكم من الأثقال والأغلال، وهذا من رحمته - صلى الله عليه وسلم.

{حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} أي على هدايتكم وإنقاذكم من النار وعلى ما ينفعكم في الدنيا والآخرة {رَوْوْفٌ رَحِيمٌ} يعني رأفته ورحمته خاصة بالمؤمنين

وفيها بيان منة الله تعالى على خلقه ببعثه هذا النبي الأمي والرسول الكريم، وقد وصفه الله عز وجل في الآية بالصفات السابقة

(وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)

(طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ) ووجوب طاعته - صلى الله عليه وسلم - ثابتة بالنصوص المتكاثرة من الكتاب والسنة، وقد قرن سبحانه طاعته بطاعته ... {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: 80] رتب هذه الطاعة على طاعة الرسول، في غير موضع من كتابه، ومن عصاه فقد عصى الله، ومن عصى الله فله النار.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56] وإنما تعبدكم بطاعته وطاعة رسوله، فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله، وما سوى ذلك فضلال عن سبيله، ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» أخرجاه، وقد ذكر الله طاعة الرسول وإتباعه في نحو من أربعين موضعاً من القرآن الكريم كقوله تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} في نحو من أربعين موضعاً أمر بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقرن بين الطاعتين بل رتب طاعة الرب جل وعلا على طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم.

(فِيمَا أَمَرَ) يعني في كل ما أمر به
(وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ) به من الغيب

فكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا امتراء.

(وَاجْتِنَابُ) يعني ترك (مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ)، فيعم، كل ما نهى عنه النبي - صلى الله عليه وسلم نهى تحريم أو نهى كراهة، (وَزَجَرَ) وهذا نهى بشدة، فيكون من باب عطف الخاص على العام، كأن الزجر هنا بمعنى التحريم، ونهى يكون عاماً شاملاً للكراهة والتحريم. قال الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7] وقال - صلى الله عليه وسلم -: «ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

(وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ) هذه قاعدة عامة وهي الشرط الثاني من شرطي صحة العبادة لا بالبدع ولا بالأهواء، ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم -: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

ودليل الصلاة، والزكاة، وتفسير التوحيد: قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ}. البينة آية: 5

{وَمَا أُمِرُوا} أي وما أمر الذين كفروا {إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} هذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو الشاهد من قوله: وتفسير التوحيد {لِيَعْبُدُوا اللَّهَ}، أي إلا ليوحدوا الله تعالى ويفردوه بالعبادة {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} العمل، {حُنَفَاءَ} مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين كما أمروا في القرآن. يعني التوحيد أمروا به في التوراة، وأمروا به في الإنجيل، وكذلك أمروا به في القرآن. وهو دعوة جميع الرسل. {حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} أي وليقيموا الصلاة، الصلاة أي المكتوبة {وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} وهي الواجبة، {وَذَلِكَ} أي الذي أمروا به في هذه الآية {دِينُ الْقِيَمَةِ} يعني الملة والشريعة المستقيمة التي لا اعوجاج فيها، وهذه الآية تدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وهو الصحيح

ودليل الصيام قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} البقرة آية: 183

(وَدَلِيلُ الصِّيَامِ) وأنه أحد أركان الإسلام الخمسة (قَوْلُهُ تَعَالَى) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ} أي فرض عليكم تشبيهه فرضٍ بفرض فقط.

ودليل الحج قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}. آل عمران آية: 97

هذا من الأدلة التي استدلت بها بعض الأصوليين على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لأن الناس لفظٌ عام لا يختص به المؤمنون، فرضٌ واجب لأن على هنا للوجوب فهي ظاهرة في الوجوب، {حِجُّ الْبَيْتِ} أي قصده لأداء النسك {مَنِ اسْتَطَاعَ} أي المستطيع ففيه تخصيص بالبدل {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} أي طريقًا {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} يعني ومن تركه فسماه الله عز وجل كافرًا، ونحن نسميه كما سماه الله عز وجل، لكن لا نقول كفر مخرج من الملة إلا إذا جحده {فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} أي كثير الخير لا يحتاج إلى عبادة أحدٍ من الخلق سبحانه وتعالى.

المرتبة الثانية: الإيمان: وهو بضع وسبعون شعبة: فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

الإيمان: في لسان العرب التصديق

وفي الشرع: التصديق الذي لا بد أن يكون معه الإقرار

ولذلك لما وقف أهل البدعة مع تعريف الإيمان بأنه التصديق فحسب أخرجوا القول وأخرجوا عمل الجوارح عن مسمى الإيمان.

الإيمان في الشرع له إطلاقان.

الأول: أن يطلق على الأفراد غير مقترنٍ بذكر الإسلام حينئذٍ يراد به الدين كله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: لفظ الإيمان إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر ولفظ التقوى ولفظ الدين، فكل ما يحبه الله ورسوله يدخل في لفظ الإيمان.

الثاني أن يطلق مقرونًا بالإسلام كما في حديث جبرائيل فحينئذٍ يُراد به الاعتقادات الباطنة، كما في حديث جبرائيل المشهور.

مثال الأول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: 2 - 4]. إذا يدخل في مسمى الإيمان إذا أطلق العملان الباطن والظاهر، ثم أكد ذلك المعنى {أُولَٰئِكَ} أي الموصفون بما ذكر من الأعمال الباطلة والظاهرة {هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} هذا نص واضح بين لا يمتري فيه اثنان عاقلان ممن عرفا لغة العرب أن إنما هنا للحرص.

وحديث «لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة»، وهنا أطلق لفظ الإيمان ، فدل ذلك على أن الإسلام داخل في مفهوم الإيمان إذا أطلق والإسلام المراد به هو العمل الظاهر. وفي حديث وفد عبد القيس في الصحيحين قال النبي - صلى الله عليه وسلم - «أمركم بالإيمان بالله وحده» هنا لم يذكر الإسلام ، ثم سألهم عن الإيمان «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال عليه الصلاة والسلام: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تؤدوا من المغنم الخمس» هذا تفسير بالعمل الظاهر لمسمى الإيمان، فعرفه بالشهادتين وأركان الإسلام، وأدخل فيه «أن تؤدوا من المغنم الخمس» ولا شك أن هذا الأخير ليس من أركان الإسلام، وإنما هو عمل ظاهر وهو داخل في مسمى الإيمان.

قال ابن القيم، رحمه الله تعالى معلقاً على هذا الحديث إن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل كما علم ذلك أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتابعون وتابعوهم، وعلى ذلك ما يقارب من مائة دليل من الكتاب والسنة، بل هذا أمر متواتر معلوم من الدين بالضرورة بأن الإيمان مجموع القول والعمل، وهذا فيما إذا أطلق لفظ الإيمان. وفي الصحيحين: "الإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ".

فأعلاها قولٌ وأدناها عملٌ، إذا الإيمان بين هذه المراتب الأعلى والأدنى ومنه ما هو قول ، ومنه ما هو عمل. وسمى الله تعالى الصلاة إيماناً كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ} [البقرة: 143]. قاعدة العرب أن الإيمان مركب.

فإذا أطلق اللفظ الإيمان فقد عرّفه السلف بأنه ما اجتمع فيه ركنان: القول، والعمل. القول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح والأركان. فالأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان. قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: كان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان. وهذا حكاية إجماع: كان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان. قال البخاري رحمه الله تعالى: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص.

وأما إذا قيل الإيمان بالإسلام فلا إشكال في أن الإيمان يكون مختصًا بالأعمال الباطنة والإسلام يكون مختصًا بالأعمال الظاهرة.

القول باللسان مثل ماذا؟ نقول القول باللسان منه ما زواله مزيل لوصف الإيمان كقول لا إله إلا الشهادتين وهذا فيما إذا كان كافر أصلًا، ومنه فواته ما لا يزيل وصف الإيمان كالتسبيح والذكر والقراءة ونحوها بل هي مكملّة للأصل من حيث الكمال يعني: مستحب، وعمل الجوارح والأركان كذلك يقال منه ما زواله يؤدي إلى زوال الإيمان من أصله، ومنه ما لا يزول الإيمان بزواله كالسنن والرواتب والصيام والتطوع والصدقات ونحوها.

انتهت المحاضرة السادسة